الجمهوريـــة الجزائـــريـــة الديمقراطيـــة الشعبيـــة
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليـــــم العالـــي والبحـــث العلمـــي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

المركز الجامعي لميلة

معهد الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

المرجع: .....

صورة المرأة في شعر " عثمان لوصيف " ديوان " ولعينيك هذا الفيض " نموذجا

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الليسانس في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب عربي

إعداد الطالبتين:

* عـــــبير بـــــعوش
* مـــــريم بـــــعوش

إشراف الأستاذ:

سليم بوعجاجة

السنة الجامعية: 2014/2013

دعـــاء

الحمد لله الذي أحسن تدبيره الكائنات وخلق الأرض والسموات وأنزل الماء من المعصرات وأنشأ الحب والنبات وقدر الأرزاق والأقوات وأثاب على الأعمال الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد ذي المعجزات الظاهرات الذي من نوره وجود الكائنات، وفقنا بتوفيقك يا ذا الجلال والإكرام فحمدا لك على كل شيء اللهم تقبل منا عملنا هذا واجعلنا من عبادك الصالحين.

إلى من دعونا الله أن يوفقنا لكي يكون مشرفا على تخرجنا فأجيبت دعوتنا وكان خير عون لنا.

إلى الأستاذ القدير سليم بوعجاجة نحن صاحبتا هذه المذكرة بعوش مريم، بعوش عبير.

نشكرك شكرا خالصا ونتمنى من الله أن نكون من الطالبات اللواتي تفخر بهن في ميدان الأدب العربي، وأن نكون إنشاء الله ممن يصلح ويحفظ البلاد.

وأخيرا حمدا لله لقضائه بما أحب فكان فيه خيرا بأن جعلك علينا مشرفا ، شكرا يا أستاذنا القدير سليم بوعجاجة، حفظك الله وهداك لما يحبه ويرضاه.

الإهداء

منتهى الصبر أمل ومنتهى الأمل عمل، ومنتهى العمل الجاد ظفر وتتويج وبداية الغيث قطرة، وبداية الأجيال خطوة، وبداية الشروق خمائل النور وبداية بدايتي هذا العمل هو أنفس رصيدي العلمي الذي أحرزته، وأسمى مكسب أعتزيه بنية هو كل ما بحوزتي أهديه:

إلى من قال فيها الرحمان:« وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ».

إلى من رضوا أن يكونوا دوما شموعا تحترق لتنير طريقي وطريق إخوتي، إلى من يخفق القلب لسماع صوتها، ويدرف الدمع لقيامها وتسعد العين لرؤيتها ولا تحلو الحياة إلا بها.

إليك يا من حبك أقوى من الزمن ... إليك يا من صدرها كله حنان وحدك التي يصبح الخوف عندها أمان والمرض شفاء، والصعب سهلا، إليك يا من أتعبتك معي في طفولتي وسهرت الليالي لتربيتي فبكيت لبكائي وسعدت لسعادتي، مشواري معك كان يثوق إلى ينبوع الحنان وأغلى ما نطق به اللسان إليك وحدك دون سواك أمي حفظك الله و أطال في عمرك الغالية " عقيلة".

إلى الذي أرى العالم في وجهه إلى رمز العطاء والرفعة والحنان إلى الذي علمني أن الحياة نضال وأن النضال عمل وأن العمل نجاح.

إلى الذي أخذ بيدي كلما فشلت وأنار دربي وسدد خطايا إلى من أعتز بانتمائي له في مبادئي وأخلاقي.

إلى الذي قال لي يوما أن الحياة امتحان وأن الفشل ابتلاء وأن القوي لا يعرف الصعاب.

إليك يا صاحب الفضل الكبير... كل همسات الحب والتقدير إليك وحدك أبي ومعلمي وسندي ونبراسي في الحياة حفظك الله وأطال في عمرك.

إلى أخواتي: الكبرى شفيقة التي أحترمها وأقدرها وأكن لها تحية خاصة وزوجها شعبان وولديها المشاكسين عبد الودود ولؤي، إلى أختي الهادئة التي أحبها وأعزها وأقدر روح المثابرة والتضحية عندها وإلى زوجها نصر الدين وعصافيرهما أكرم صاحب العيون السوداء وأجمل بنوتة وأقربهن إلى قلبي مرام، إلى النشيطتين والحبوبتين هدى وصونيا وابنتيهما حمامتي السلام زينب وإيمان.

إلى أعز وأغلى أخت لي لمياء، إلى إخوتي قرة العين صلاح الدين وزكرياء، والمشاغب يعقوب، إلى آخر العنقود المدلل صاحب العيون البنية داود.

إلى الغاليات الثلاث طاطا مليكة التي وجدناها سندا لنا منذ الطفولة إلى الغائبة عن عيوننا الحاضرة في خواطرنا عمتي خدوجة إلى الحنونة عمتي حورية إلى خالتي زليخة، إلى أعمامي وأخوالي، وكل من يحمل لقب بعوش وزنتوت.

إلى عائلتي الثانية في الحي الجامعي، وبالضبط فراشات الغرفة 03 اللواتي قضيت معهن أحلى أيام العمر فشكلنا عائلة كان عنوانها الحب والتعاون والإيخاء، إلى البشوشة الرقيقة جميلتي المشاكسة فتيحة، إلى الهادئة صاحبة القلب الأبيض حنان، إلى منى فاسمها غني عن كل تعبير كانت نعم الأخت والصديقة لي، إلى صديقة العمر المميزة إلهام، إلى توأم روحي"خديجة" المدللة على قلبي التي ملأت عليا الدنيا بابتسامتهاوالله عالم بما يلج في صدري من حب وحنان نحوها.

إلى التي قاسمتني أعباء الحياة الجامعية بحلوها ومرها، التي شاركتني في الصراء والضراء بها كان هذا العمل مرض وكانت أيام الجامعة والدراسة رائعة إبنة عمي ورفيقة دربي مريم.

إلى كل من أحبني وحمل في قلبه مشاعر إتجاهي، وأعانني في هذا العمل من قريب ومن بعيد ولو بإبتسامة.

عبير.

مثلت المرأة عنصر إلهام وإبداع للشعراء، بما جسدته من عوامل متخيلة حملت المبدعين على ارتياد آفاق واعدة للكتابة، لقد ظلت المرأة تؤثث المخيلة المبدعة وتمدها بمعين لا ينضب فهي التي تنجب الرجال وتربي الأبطال وربما شاركت في القتال أيضا كذلك نجدها الحضن الدافئ الذي يلجأ إليه الإنسان يبثه همومه وأحزانه ويطرح ألامه وأماله كما أنها مثلت ظلا ملازما للشعراء، يبكون فراقها ويتشوقون لرؤيتها، ويتعذبون بصرمها وقطيعتها، فطالما صوروها في صور العفيفة الطاهرة والمتمنعة، المصونة وطالما افتخروا بحمايتها ورعايتها وصونها فجعلوا منها المأوى والموئل والوطن الذي تنزع إليه النفس في كل الأحوال، لذلك كثرت الدراسات التي تناولت المرأة في الشعر العربي فحاولت أن تقترب من عوالمها من زوايا متعددة، غير أن الذي أثار اهتمامنا ولفت انتباهنا أن هذه الدراسات أغفلت حضور المرأة في الشعر الجزائري، فالشعراء الجزائريون حاوروا المرأة في أشعارهم ووصفوها وأحبوها وشاطروها أحلامهم وآمالهم وأحزانهم وهمومهم حيث نجدها لائمة مرة، محرضة أخرى، كما نجدها حينا آخر تمتشق السيف مدافعة عنهم ملهمة لهم في المعارك حينا آخر، رمزا للنضال الوطني ومعادلا للوطنية الصادقة.

لقد صوروها تصويرا بارعا ودقيقا، فهي عفيفة طاهرة شريفة تغض البصر وتكرم الجار وتحفظ الأسرار، وتظل عونا للرجل في كل وقت سواء كانت محبوبة أو زوجة، أمًّا أو أختا، قريبة أو بعيدة.

إنّنا ونحن نقدم على هذا البحث نعرف مدى الصعوبة التي تواجهنا ولكننا نرغب معتمدين على الله أن نضيف ولو شيئا يسيرا لهذا الموضوع عبر تركيزنا على نتاج شعري للشاعر عثمان لوصيف لنصل إلى صورة واضحة المعالم عن حضور المرأة في ديوان " ولعينيك هذا الفيض" للشاعر المذكور وقد اتبعنا في دراستنا هذه المنهج التحليلي حيث قسمنا البحث إلى مقدمة ومدخل وفصلين وخاتمة فكان على النحو التالي:

أولا: المدخل: وقد تناولنا فيه دور المرأة في بعث الإلهام عند الشاعر ثم عرضنا لمكانة المرأة في الشعر الجاهلي وكيف كان ينظر لها، ثم عرّجنا على المرأة بعد مجيء الإسلام وتغير النظرة لها.

أما الفصل الأول فقد أفردناه لتجليات المرأة في الشعر العربي والشعر الجزائري بصفة عامة حيث تناولنا فيه:

المرأة بوصفها رمزا كما هو الشأن لرابعة العدوية وليلى الأخيلية وشهرزاد وغيرهن.

ثم تناولنا فيه أشكال استدعاء المرأة في الشعر الجزائري كما هو الشأن بالنسبة للمرأة المجاهدة، الأم والحبيبة.

أما في الفصل الثاني فقد تناولنا صورة المرأة في ديوان عثمان لوصيف مشددين على صفتي التجسيد والتجريد بما هما ميّزتا تناول لوصيف للمرأة.

وختمنا البحث بالنتائج التي توصلنا إليها من خلال هذه الدراسة، نرجو الله العلي القدير أن يسدّد خطانا دائما وأن يوفقنا إلى ما يحب ويرضى.

الأدب هو التعبير الفني الجمالي عما يختلج في النفس من مشاعر وأحاسيس ويكون هذا التعبير في شكل نثر أو شعر هذا الشعر الذي تنضح به قريحة شاعر يعيش في مجتمع أو بيئة ما فكما يقال الشاعر لا يطلق على مجتمعه من السماء وإنما يخلق ويترعرع فيه لدى فهو ملزم بأن يكون مرآة عاكسة لمجتمعه ولسان حاله، ومن هذا المجتمع يستقي الشاعر موضوعات شعره و قصائده والطبيعة هي ملهمة الشاعر وهي المثيرة لأحاسيسه حيث عبر عما يوجد فيها من حياة و عادات وتقاليد وعن الحروب والغزوات باعتبار الإنسان القديم كان يعيش في غزو دائم لقول الشاعر:

وما أنا إلا من غُزَيَّة إن غوت غويت *** وإن ترشد غُزَيَّة أرشد

وبعد هذا انتقل في تعبيره إلى الرمال والأطلال هذه الأطلال التي مثلت ذكرى لأحبائه وأصدقائه الذين فارقوه وانتقلوا إلى مكان آخر.

وبعد هذه الرحلة مع الطبيعة من أطلال ورمال وحرب وغزو تأتي "المرأة" مصدرا وباعثا قويا للإلهام عند الشاعر فهي بمثابة القلب في الجسد تمثل الخصب والحياة هي منبع الحياة وموطن الاستقرار إذ لا يوجد من هو أقوى وأجدر منها في هذا " الإلهام" فهي التي تلهم الرجل وتثير فيه مختلف الأحاسيس لهذا أدرك الشعراء منذ أن تفتحت أعينهم على الشعر أن ليس أحق من المرأة بافتتاح قصائدهم وتصدر أشعارهم بما عمله حضورها من خلال جمالها ورقتها وقد كان لها أثرها الكبير بالنسبة للرجل في الشعر الجاهلي حيث مثلت المرأة حافزا ودافعا للإبداع الشعري.

فوصف جمالها تارة وتغزل بها تارة أخرى لأنها كانت عجيبة في كل شيء فاقترب الشاعر من هذه المرأة فجاء على أوصافها فكانت المرأة الساحرة... العذبة... المرهفة... الجميلة... الحنونة... الماكرة.

هي الأم والأخت والعمة، الخالة، الزوجة، الابنة، هي الحبيبة والعشيقة، هي ملهمة الشعراء و فتنة الرجال، تغنى بها الكثير من الشعراء، نسجوا حولها أروع البيان.[1]

لا يكاد يوجد شاعر إلا و لشعره نصيب في وصف المرأة أو التغزل بها وصف جسدها وتفاصيله من صدر وخصر وبطن، ردف وثغر وساقان والعين.

مثلا نجد امرؤ القيس يقول:

مُهَفْهَفَةٌ بَيْضَاءُ غَيْرُ مُفَاضَة *** تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنْجَلِ[2]

يقول: هي امرأة رقيقة الخصر ضامرة البطن غير عظيمة البطن ولا مسترخيته وصدرها براق اللون متلألئ الصفاء كتلألؤ المرأة.

وصل الغزل و الوصف في القديم إلى درجة أنه عندما يقرأ الشاعر قصيدة في أحد هذين الغرضين كتبها في امرأة ما يمكن معرفتها مباشرة (المرأة).

هذه المرأة التي كانت تمثل للشاعر رمز الشهوات وأنها المشبعة لغرائزه متناسيا أنها أنثى ولها حقوق.

وقد برز في هذا المجال الكثير من الشعراء أمثال النابغة الذبياني وعنترة ابن شداد وطرفة ابن العبد وامرئ القيس الذي لم يرحم حتى ابنة عمه من سلاطة لسانه في الغزل الماجن. واستمر الحال على ما هو عليه ولازالت المرأة توصف وصفا فاضحا إلى أن بزغ فجر الإسلام وانبثق نور الهداي ة والحياء فأعاد للمرأة حقها وصانها وحفظها وحارب التغزل بها ووصف وذكر مفاتنها لأن هذا ي يثو الفاحشة وأن المرأة ليس سوى جسد بل هي روح ونفس فظهر ت نسوة غير ن مجرى التاريخ وسجلن أسمائهن بأحرف

(1) مذكرة التخرج: صورة المرأة في الشعر الجاهلي، المعلقات نموذج، إعداد : درموشي نعيمة، قيقاح إلهام، إشراف الأستاذ: زلاقي محمد، سنة 2010-2011م.

(2) امرئ القيس: الديوان، دار صادر، بيروت، ص42 .

من ذهب وركبن نفس المركب مع الرجل لخوض غمار الحياة أمثال خولة بنت الأزور وعائشة أم المؤمنين والقائمة طويلة هذه النسوة فرضن احترامهن على الرجل فتغير الشعر ونظرته للمرأة فأصبحت المرأة تذكر في الشعر لكن للإقتداء بها وتبيان عظمتها لأنها كانت دائما ترفع راية الحياء عاليا فالعرب في هذا العصر قدرو ا المرأة حق قدرها ومنحوها حرية ومكانة فاقت مواقف الأمم المجاورة لهم.

كما أنه برز عدد غفير من الشاعرات اللاتي كان لهن دور فعال في الدعوة إلى الإسلام مثل: ميمونة بنت عبد الله، وهند بنت أثاثة، وصفية بنت عبد المطلب. [1]

ومن عصر الإسلام إلى العصر الحديث هذا العصر الذي عرفت فيه النظرة إلى المرأة تطورا ورقي وحداثة فأصبحت معادلا موضوعيا لكثير من الموضوعات القيمة كالحرية والوطن.

حيث أن الشعراء يضمنون المرأة في قصائدهم وتظن عند قراءتك أنه يتغزل بها لكن في الواقع هناك رسالة من وراء تلك المرأة، والشاعر يقوم بهذا التجسيد لأسباب سياسية أو نفسية أو لأخرى لا نعرفها وخير مثال على هذا نزار قباني الذي لقب بشاعر المرأة لكنه يقصد من خلال المرأة في أغلب الأحيان " الوطن".

وهذه الظاهرة لم تقتصر على شاعر أو قطر معين بل انتقلت حتى وصلت إلى شعرائنا الجزائريين الذين يفهمون أن المرأة مقدسة و لا يجوز للشاعر أن يفضحها بقصيدة ما فمثلا نجد ابن باديس نشر قصيدة كانت مساجلة بين مجموعة من الشعراء (أحمد سحنون، محمد العيد آل خليفة) قالوا في امرأة رأوها:

(1) المرأة العربية و الإبداع الشعري : سهام عبد الوهاب الفريح قسم اللغة العربية، جامعة الكويت، ط1، دار جرير للنسر والتوزيع، عمان – شارع الملك حسين مقابل مجمع الفحيص التجاري، 1431 هـ ، 2010 م.

وفتاة مرت بنا ذات صباح تتثنى *** كأنما غصن بالي [1]

و المرأة التي يتحدث عنها هؤلاء هي "الحرية"

ووضعوا الفتاة بدل الحرية لظروف سياسية وهي الخوف من الاستعمار واضطهاده. دون نسيان رمضان حمود الذي قال قصيدة في الغزل السياسي يتهيأ لك للوهلة الأولى أنه يتحدث عن امرأة لكنه يقصد الحرية حيث يقول:

لا تلمني في حبها وهواها *** لست أختار حبيبة سواها [2]

والقائمة طويلة من الشعراء الجزائريين الذين ذكروا المرأة في شعرهم وقصدوا أشياء أخرى من بينهم الشاعر عثمان لوصيف الذي هو موضوع مذكرتنا بديوانه " ولعينيك هذا الفيض" فما الذي يرمي إليه الشاعر من وراء العينين و فيضهما و هما عيني امرأة؟ فهل يقصد الوطن أو الحرية؟ وهذا ما سنعرفه من خلال شرح و تحليل ديوانه.

(1) من محاضرات الأدب الجزائري، أغراض الشعر الجزائري الحديث.
(2) المرجع نفسه.

1 –تجليات المرأة في الشعر بصفة عامة:

بعد أن كانت المرأة ملهمة للشاعر مستثيرة لمشاعره، وغيرت النظرة الدونية التي كان ينظر بها إليها وظهرت نساء خلدن وجودهن بحروف من نار ونور محاولين بذلك محو تلك النظرة الضيقة التي كانت ولا تزال بمثابة لعنة تطاردهن ورغم كل ذلك العناء المرير لم يتقصف غصنها ولم يلتو، وبقت تلك الزهرة النارية التي تناول الدهور آمال المستقبل و تنقل من ذرية إلى ذرية قبس الحياة العظيم، ففرضت وجودها بحق و أصبحت قضية من قضايا الشعر بل أصبحت رمزا عندما لم تعد الكلمة قادرة على إيصال المعنى الحقيقي الذي ترمي إليه.[1]

فأصبحت هذه النسوة قدوة، ولكل منهن رسالة تقدم إلى البشرية في شتى مناحي الحياة من أخلاق وأدب وجهاد وكفاح وحب عذري و برزت نسوة جسدن هذه القيم أمثال: رابعة العدوية، كليوباترا، ليلى، شهرزاد وجميلة بوحيرد و غيرهن كثيرات.

أ – رمز رابعة العدوية:

بلغت هذه المرأة من التصوف والزهد حدَّ عشقها الذات الإلهية والتي لم يختر لها اسم لأنها رابعة أخواتها البنات تتحول في عصرها إلى نموذج مثالي لتقوى ورجاحة الرأي تستنجد بها كل امرأة لتقهر كل بدعة تخالف القيم الروحية الجمالية للمجتمع العربي الإسلامي والتي استحدثتها الأنثى. [2]

وإذا كانت "رابعة العدوية " رمز للمرأة المناضلة ضد شهوات نفسها أولاً ثم ضد المادية الفانية ثانيا فإن كثيرا من النساء اللاتي جعلنها قدوة لم يحققن ما حققته هذه الأنثى لذلك أصبحت رمزاً لكل الأزمنة السابقة حيث يعود الشعراء إلى عصرها (أرابعة إننا في

(1) زهيه بوديا بوثلجة: نساء الجزائر، إنجاز: مجلة أنوثة، منشورات جمعية المرأة ، ساحة أول ماي الجزائر، 2002 م.

(2) ناصر معماش: النص الشعري النثري العربي في الجزائر، دراسة في بنية الخطاب، دار النشر: دحلب، عاصمة الثقافة العربية، الجزائر، ط1،2007 م، ص112.

زمن الخلاعة) لينقلوا لها أخبار زمنهم الخليع المفعم بفساد الأخلاق ورواج الفوضى في الذوق الجمالي في سياق واحد بليغ يحيل القارئ إلى الموازنة بين موقفين، موقف "رابعة العدوية" وهي تخلع عن نفسها الشهوات المادية، والخلع يكون روحيا فيه سمو نحو المطلق بتجديد العقل من الأفكار الوضعية، وتحصين المشاعر من العاطفة البسيطة إلى البحث عن عشق صوفي لا يتعرض للمتناقضات كاللذة والألم والقرب والبعد والشوق والملل.

موقف آخر يراه الشعراء خليعا منطلقه الظاهر و منتهاه المادة إذ تسود ثقافة (الجسد) وتغيب ثقافة (الروح)، وكأن العلاقة عكسية تماما، كلما جردت المرأة عقلها من الماديات كلما غطت جسدها، وكلما جردت جسدها من الثياب غطت عقلها بالماديات إلى غاية انعدام النازع الروحي. [1]

ب –رمز ليلى:

منذ أن تغزل " قيس" بليلى و الشعراء العرب يتداولون هذا الاسم الذي اكتسب سلطة على المسميات، فهو قديم حديث، لم يتعرض شأن بعض الأسماء الأخرى للإهمال أو التحريف لاعتبار أنه يؤدي قناعة جمالية و بعدا حضاريا مهما.

وسلطة ليلى على الواقع عاديا كان أم أدبيا إنما مرده الشعر لا غير حتى غدا رمزا للجمال والحب والأنوثة وتوظيفه عند الشعراء يختلف في مغزاه من الشاعر الرجل إلى الشاعرة الأنثى، فالشاعرة الأنثى ترى في كل أنثى (ليلى) تدعوها للنهوض ضد الرجل لأنها أمام قضية أخرى أكبر من الوطن: [2]

آه ليلى

كرهوا فينا الأنين...

(1) ناصر معماش: النص الشعري النثري في الجزائر، ص 113.
(2) المرجع نفسه، ص 108.

سئموا اللحن الحزين...

وانتظار ابن الملوح (1)

إنها دعوة صريحة للمرأة كي تتجرد من أنينها وحزنها، وهي تنتظر فارسها أو شاعرها الفحل لينجيها من رقها.

آه ليلى

صح عزمي أن أثور

للرياح الهوج أرمي كل قيس. (2)

والمعادلة إما أن تخضع المرأة للرجل الفرد، وإما أن تبحث عن حب آخر هو حب الوطن.

أما بعض الشعراء فيستحضرون هذا الرمز ليعمموا من خلال تعرض المرأة للقهر والتغييب منذ الزمن الماضي الذي ورثت عنه المجتمعات العربية هذا السلوك، لقد غدا رمز ليلى عالما مفتوحا تتجاذبه مجموعة من الفلسفات التي تنظر للمرأة من وجهات نظر متباينة، وفي كل الحالات تبقى ليلى جميلة بأنوثتها رقيقة بمشاعرها صامتة بعزتها (3) ككل امرأة عربية في صراعها مع الرجل الذي أصبح من سلالة ملوك الطائف حين خرق بأخلاقه الذوق العام، وشوه هذا الكائن الجميل الذي خلق لأجل أن يعيش في رفاهية وحب ليكون عطاءه حبا يكفي البشرية جمعاء.

هذا الكائن الذي إن توفر له الجو المناسب فإنه يكون رمزا للخصوبة و العطاء دون انتظار أي أحد ليقول شكرا.

---

(1) ناصر معماش: النص الشعري النسوي العربي في الجزائر، ص 108 .
(2) المرجع نفسه ص 62.
(3) المرجع نفسه، ص110.

ج- رمز كليوباترا:

هي شخصية سياسية حكمت مصر ولم تستطع أن تصمد في آخر المطاف بوقوعها في حب عدوها "أنطونيوس" و بذلك اتهمت بنزوعها لتحقيق رغبتها العاطفية على حساب وطنها، ورغم ذلك ظلت رمزا للمرأة الغامضة القوية، الضعيفة المستهترة الشجاعة. كتب حولها الكثير من الشعراء أحمد شوقي في مسرحيته المشهورة " مصرع كليوباترا". [1]

وحضورها في النص الشعري الجزائري الحديث هو انبعاث جديد لإحساس الشعراء الجزائريين برابط الصلة بين وطنهم و قومياتهم، إذ كل النساء يمثلن كليوباترا و ما تاريخ مصر إلا حلقة أخرى من سجل تاريخ الإنسان الأسمر المعتز بحضارته العريقة و فلسفة سلوكه المتميزة.

إن كليوباترا بسلوكاتها وأنفها وأنفتها، وجمالها وسلطتها هي رمز للمرأة الجميلة القوية تارة الضعيفة تارة أخرى، أما بعض الشعراء فيستحضرون هذا الرمز لوصف ظاهرة جمالية في المرأة المصرية التي ورثت جمالها المميز من خصلات شعر" كليوباترا" وسواده المحبب للذوق العام في المجتمعات العربية، هذا الشّعر الذي قيل فيه شعرا.

وزاد كليوباترا جمالا على جمالها فمن حقها أن تحلم كامرأة بالتباهي بأنوثتها وإن كانت حاكمة لا ترضي أذواق الناس.

د- رمز شهرزاد:

ما إن تذكر "شهرزاد" إلا ويذكر "شهريار" الثنائي الذي صنع أساطير و قصص (ألف ليلة و ليلة). وإذا كان "شهريار" رمزا للرجل المتسلط المريض الذي لا يجد لذته إلا في قتل الأنثى بعدما يرى من أنوثتها ما ينمي في شخصيته جانب رجولته الشابة فإن

---

(1) ناصر معماش:النص الشعري النسوي العربي في الجزائري، ص111.

شهرزاد هي الأنثى الوحيدة التي استطاعت أن تصمد أمام جبروته، لتحوله بذكائها الخارق إلى طفل صغير يحن إلى سماع الحكايات الليلية، إذ الليل في الواقع مرتبط بالخوف والطلاسم لذلك كانت شهرزاد رمزا للمعلمة الناجحة في تحويل طاقة شهريار المخمرة إلى طاقة بناءة أعادت له مكانته كمالك قوي يساند الخير ويكره الشر. وهو الدور المنتظر من المرأة في الواقع الإنساني عامة [1]، والواقع العربي بشبكة عاداته وتقاليده خاصة فالمرأة أصبحت تتقمص شخصية شهرزاد متحدية الرجل حين أحست منه خطر على أنوثتها.

لم تخاطب امرأة في (ألف ليلة وليلة) " شهريار" إلا " شهرزاد" التي تفتق لسانها فأخرجت كل حيلها وحجج أفكارها لتعيده إلى رشده وتخلق لنا بعد ذلك اثرا غاية في الإبداع.

2 –تجليات صورة المرأة في الشعر الجزائري:

بدأت بوادر حركة شعرية جديدة في الجزائر – رؤية ومضمونا – تتجلى من خلال الصفحات الثقافية للجرائد والمجلات، وقد حمل لواء هذه الحركة نخبة من الشعراء الذين حاولوا أن يطوروا تجاربهم الفنية فبرزت في صوت متميز وسط بحر لا متناه من التجارب حمل لواء الروح متخذين من القصيدة فضاء للجرح، ومن الكتابة معراجا إلى برزخ الصوفية وآفاق الروحانية المطلقة.

لعل أبرز ما ميز هذه التجارب هو إحداثها " لنقلة نوعية في النظر، وفي التعامل مع الشعر، والواقع التاريخي بحيث لم يعد الشعر ممارسة نظرية أو استجابة لنوازع ترغب في أن تتحقق في التعبير الشعري، وإنما أصبحت تسعى إلى التجاوز والصدام مما يجعلنا نشعر بوجود قفزة نوعية، تهدف للوصول بالقصيدة الجزائرية إلى مكانتها اللائقة بها. [2]

(1) ناصر معماش: النص الشعري النسوي العربي في الجزائر، ص109 .
(2)عبد الحميد هيمة: الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري المعاصر، الناشر: اتحاد الكتاب الجزائريين، مطبعة: دار هومة ، ط1، 2003 م، ص 33.

ولعل من إيجابيات هذه التجربة الشعرية أنها أصبحت تخاطب بإبداعاتها ذاتية القارئ، ولا تقف عند حد دغدغة المشاعر والأحاسيس، ومن هنا نرى أن عبقرية الشاعر الحديث " تتجسد في التغني للحياة وجمالها الرائع والانتصار للإنسان، وقضاياه العادلة وقضايا المرأة، حيث تزيد مشاعره التهابا وسط إفرازات عصرنا، وتناقضات واقعه وفي محاولة مستميتة منه لمعانقة المطلق واصطياد القمر ونجوم السماء، وسط عالم من الجزيئات والرغبات الجامحة التي لا حدود لها طامحا من خلالها إلى تحقيق حاجاته الإنسانية وتحقيق أحلامه على أرض الواقع في جو يضمن له كينونته الخاصة التي لا غنى عنها، وبما أن الشاعر الجديد لا يرتبط بأحداث عصره وقضاياه ارتباط المتفرج الذي يصف ما يشاهد، وينفعل بما يصف، وإنما هو يعيش الأحداث و يحاول استكناه أسرارها فقد أدى به ذلك إلى اصطناع التعبير الدرامي في شعره و هذه الدرامية تنعكس كثيرا في الصور التي أصبح الشاعر يستعين في تشكيلها بوسائل التعبير الدرامي.

وأصبح الشاعر الجزائري يستعين بالصور نتيجة تلك الغربة الحضارية التي يعيشها في وطنه بين أهله رافضا واقعه ونفسه، وكان كسيرا يائسا يعاني مرارة الغربة والتشرد في متاهة هذا الزمان الموبوء وهو يحاول الانفلات إلا أنه يُواجَهُ بالليل الطويل والنهار الباكي و الحب الميت، فيستسلم للأسى و لا يجد العزاء إلا في المرأة التي يستنجد بها وهذا يعكس شخصية الشاعر الهروبية العاشقة التي لا تجد ما تطمح إليه في الواقع المعيش فتأوي بعزلتها إلى الأنوثة إلى ذلك العالم السحري المفعم بالسحر والفتنة و الجنون:

أين يا أيتها العذراء قلبك؟

أين وجهك؟

أين يا أيتها الحسناء حبك

يبتغيه الضعفاء.

أين صوتك؟

يفتديه الفقراء. [1]

وتتسرب هذه النغمة نغمة الاحتفاء بالأنوثة إلى جل المتن الشعري الجزائري المعاصر و لعلها أنوثة الوطن المسلوب أو المغلوب: المرأة = الوطن = الأرض [2]

يظهر ذلك في الكثير من التجارب منها تجربة " محمد رتيلي" يقول:

عيناك تسبحان في محيط الذكريات

مرسومتان فوق قلبي

ونجمتان في الليالي

عيناك يا حبيبتي تعذباني

وتجعلاني أعشق اللسان والحياة

وأعشق الوطن

وأعشق الذين حطموا الطغاة

عيناك يا حبيبتي

أرى وجودي فيهما

فينسياني جذبة الحياة

---

(1) عبد الحميد هيمة: الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري المعاصر، الناشر: اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، ص36 .

(2) المرجع نفسه، ص36.

آه...... يا عيناك........ يا حبيبتي[1]

الشاعر حين يلوذ بعزلته إنما يفعل ذلك لأنه يخشى من فقدان ذاته داخل حياة المجتمع الصاخبة في المدينة الصناعية التي طغت عليها المادة والآلة.

لقد كانت المرأة منذ القدم و لا تزال الملجأ الأوحد لمن أنهكته الخطوب وأحاطت به المصائب يتوحد بها يتدثر لدفئها وحنانها ويستحم في مائها الأزلي فتتجلى أحلامه الواعدة، وعندها يرى وجوده ويكشف الحقيقة ويعلق " الدكتور عبد القادر فيدوح" على فكرة توظيف المرأة قائلا:

" إنَّ توظيف المرأة في الشعر المعاصر ليتحد بما يبعث الإنسان على الانبعاث في حدوسه المشوب بالانفصال، وهنا يقترب التوحد من الزمن الأسطوري حين يرتبط هذا الاهتمام بالمطالب النفسية التي رأت في الأسطورة نوعا من الإسقاط النفسي – يهدف– يتمثل طقوسها إلى إعادة بناء المتناقضات في تجربة الإنسان وما يناوش وعيه من ضغوط متعددة" .[2]

وقد استطاع الشاعر الجزائري أن يطوع هذه التجربة بما يناسب واقعه النفسي من أجل التعبير عن شوقه إلى معانقة الروح المستترة وراء التجربة فكما تحدث الشعراء الجزائريون عن النساء العربيات بصفة عامة واتخذنهن رمزًا تحدثوا عن نساء وطنهم الجزائريات الحرائر اللاتي وقفن إلى جانب الرجل كمجاهدات وأمهات وحبيبات وزوجات فكيف تحدث الشاعر الجزائري عن كل واحدة منهن.

كان للمرأة الجزائرية المجاهدة الحظ الأوفر في الشعر الجزائري الثوري.

---

(1)عبد الحميد هيمة: الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري ، ص37 .
(2) المرجع نفسه، ص 36 -37 .

أ -المرأة المجاهدة:

إذا كان الرجل هو الذي يقوم بالدور الرئيسي في قيادة معارك الثورة منذ انطلاقها ويتحمل مشاق الجبال وعناء التنقل والترحال بينها فإن مهام أخرى كانت بحاجة إلى أن تقوم بها المرأة، وقد لا تقوم بها غير المرأة، وبدون هذا التعاون لم تكن الثورة لتستطيع تحقيق أهدافها في المدى الذي رسمته لنفسها.

انطلاقا من هذه النظرة التكاملية، برز الدور المتميز الذي قامت به المرأة على الصعيدين الاجتماعي والوطني في القرية والمدينة في الجبل والسهل، فقد تحملت المرأة الجزائرية في بداية انطلاق الثورة مسؤولية إدارة العائلة والقرية بأكملها بعد رحيل الرجل إلى الجبال، وبسبب هذه المسؤولية تعرضت العائلة والقرية إلى الضربات العنيفة، وإلى التشريد في ظروف العزلة و غياب الحامي وخلو البيت من وسائل الدفاع.

ومع ذلك فقد صمدت المرأة صمودا عنيدا، ودافعت بما أمكن من الوسائل عن عرض وشرف العائلة والقبيلة والقرية، وتعرضت إلى أبشع أنواع الاضطهاد والاغتصاب و القتل وشاهدت بيتها يخرب و رأت أطفالها يعدمون أمامها و زوجها يؤتى به من السجون، ومع كل ما شاهدت و رأت لم تنثن و لم تهن عزائمها بل واصلت نضالها في جرأة و ثبات، ثم جاء في مرحلة صعود المرأة إلى الجبال ومشاركتها الفعلية في المعارك المسلحة والتمريض و الطبخ و القيام بدور الاتصال وتوزيع المنشورات السرية وقيادة الخلايا في المدن.

إن هذا الدور الذي لعبته الجزائرية في حرب التحرير يسجل لها بفخار في سجل الكفاح الوطني والقومي مما جعل بعض من اشتهرت من الأسماء و تعرضن للسجن والإعدام تمتد إلى الصحافة العربية والعالمية، فأصبحت المرأة الجزائرية مضرب المثل في البطولة، و أغنية على كل الشفاه.

وما إن اندلعت الثورة حتى رأينا المرأة الجزائرية تحتل مكانتها البارزة أولا في الدفاع عن الحمى ومشاركة الرجل في التفكير والتخطيط والدعم المعنوي والتحريض على الالتحاق بالجبل راضية بالوحدة مستحملة أعباء البيت والأطفال، ثم رأيناها تشد أزره في الكفاح المسلح. (1)

لم تؤثر المرأة في " ميزان القوة " العسكرية والمعنوية فحسب بل كان لها تأثيرها الفكري على الرجل أيضا وإقناعه بوجوب التخلي عن كل شيء والالتحاق بالجبل لقد استطاعت أن تقتل في نفسها كل غرائز المرأة، و تتظاهر بالجّلَدْ.

من الطبيعي أن تحتل المرأة في هذا الإنتاج الأدبي مكانة بارزة لا باعتبار التباهي بالمرأة الجزائرية و لكن الإنصاف كان يقتضي أن ينوه بهذا الدور– و هو واقع فعلا – وأن يسجل هذا الواقع كصورة من صور تضامن الشعب بأسره و تناوبه للكفاح رجالا و نساء، مدنا و قرى لقد كانت الفكرة الشائعة خلال هذه الفترة من انطلاق الثورة، إن كلمة الثائر والمقاتل لا تنصرف إلا لتدل على الرجل.

لقد كان للمرأة دور كبير في إعداد العقلية الثورية مدى أجيال عديدة وعبر سنوات الاحتلال فالجزائرية لم تكتف خلال حربنا التحريرية بأن تخيط الملابس وتبكي الشهداء بل كافحت في الجبال، وعالجت الجرحى فأعطت بذلك الدليل على عمق كفاحنا واتساعه في آن واحد.

وهكذا نجد أن تحرر المرأة لم يحطم الثورة كما كان يحلم المستعمرون – بل على العكس من ذلك – وجدناه يغذي كفاحنا الثوري و يجعله أكثر عمقا و شمولا وهكذا وجد العدو نفسه حائرا مبلبلا أمام مشاركة المرأة في الكفاح الجزائري إذ وجد أن للمرأة

(1) محمد صالح الجابري: الأدب الجزائري المعاصر، الجائزة المغاربية للثقافة، دار الجبل للنشر والطباعة، ط1، – 1426هـ 2005م.

الجزائرية دورا هاما تلعبه في هذا الكفاح العظيم. ثم فوق هذا وذاك، وجد بأن المجتمع الجزائري لم يكن في يوم من الأيام خاليا من حركية المرأة. [1]

لقد كان التعبير الذي يطلق على المرأة في "المجتمع العربي" هو الرئة المعطلة " حيث كان من بين هذه الخرافات التي احتلت مكانا بارزا في الدراسات الاستعمارية.

فالمرأة الجزائرية عندما كانت تفرض على نفسها ذلك السجن، فلكي تتمكن من تهيئة ضميرها الثوري و الاستعداد للكفاح، و قد برهنت على ذلك في غرة نوفمبر عندما هبت مستبسلة مناضلة و مجاهدة.

1 رمز جميلة بوحيرد:

ومن المجاهدات الجزائريات اللواتي كن رمزا في شعر الشعراء الجزائريين جميلة بوحيرد واحدة من جميلات الجزائر، ومن منا لم يسمع باسم جميلة الفتاة الجزائرية التي لم تتجاوز الثانية و العشرين ربيعا، مناضلة في صفوف جبهة التحرير الوطني، والمسؤولة عن مصلحة الاتصالات في الجزائر العاصمة، التي سقطت جريحة تحت رصاص الجنود الفرنسيين، وسجنت وعذبت وحكمت عليها العدالة الفرنسية بالإعدام ! جميلة رمزا لنضال المرأة ضد الاستعمار بأشكاله، انطلاقا من كون المرأة خلقت لتكون أنثى بمشاعرها وأفكارها وسلوكها، جميلة اخترقت هذه الحدود تلبية للنضال لممارسة حريتها الشرعية فصارت رمزا لكل المناضلين في العالم من أجل قضاياهم العادلة هي مثل أعلى للصمود والمقاومة والتحدي، جميلة تخلت عن أحلامها كأنثى وحنينها إلى رجل وسيم أو منصب مهم أو لباس فاخر من أجل حرية وطنها. [2]

هذه المرأة التي داع صيتها في الوطن العربي كاملا لشجاعتها وقوتها وتحديها المستعمر فسال حبر كثير من الأقلام تغنيا بها وافتخارا بأنثى أدركت وأيقنت أن السلاح

(1) زهيه بوديا بوثلجة: نساء الجزائر،ص15 -17
(2) ناصر معماش: النص الشعري النسوي العربي في الجزائر ، ص38.

والثورة ليست حكرا على الرجال فقط ، جميلة يذكرها الليلك والنرجس، يذكرها زهر الكباد وذكرها الشاعر الجزائري "سليم الرشدان" في قصيدة من قصائده يقول:

سمراء يا بنت الشم في أرض الجزائر

يا شهلة البأس الفتي، وعزمه الليث المغامر

يا صرخة بعثت كوامن حقدها في كل ثائر

يا صفحة من ذكريات المجد كل غابر

يا سارما يهوى بنور الحق يمحو كل فاجر

المجد أن يذكر دليله

لم يلف غيرك يا جميلة

دوى النفير فهز هامات الربا والليل أمسى

فتحفز الأبطال كالآساد بل وأشد بأسا (1)

*هذه القصيدة هي قطرة من بحر، مما قيل في جميلة بوحيرد رغم أنها أنثى إلا أنها زعزعت المستعمر وكان يحسب لها ألف حساب، فيا ليت لو أن كل نساء الجزائر جميلات ليكون لنا شرف معرفة ما قدمنه للجزائر التي طالما نازعتهن إليها أنفسهن في الخلد.

ب- المرأة الأم:

الأم هي محور الأسرة و سر استمرارها و لذلك لعبت دورا بارزا في المجتمعات منذ القدم، فكانت رمزا للمحبة والحنان والتضحية، ورمزا للأرض والكاهنة والعرافة في

(1) زهيه بوديا بوثلجة: نساء الجزائر، ص26.

المجتمعات القديمة فهناك علاقة مشيمة بين الأرض والأم فلها من المنزلة والمكانة بحيث لا تتساوى بها أية منزلة أخرى. [1]

الأم قالب النوع الإنساني تحمل وليدها تسعا وترضعه شفعا وتربيه طفلا وتؤدبه يافعا و ترشده غلاما، و قد شغلت صورتها حيزا واسعا في الروايات والشعر صورة الأم هي الصورة المشرقة التي تمثل التضحية والصبر والعطاء الذي لا حدود له [2]، أما الأم الجزائرية فهي أم لا مثيل لها أم ترضى البرد والجوع من أجل دفء أولادها ترضى الحزن والأسى لتسعد فلذات كبدها، أم حاربت و ناضلت في الحياة دون تعب أو كلل لتقدم لأسرتها ما تحتاجه، أمُ لم يثنها عدم وجود الزوج إلى جانبها عن مواصلة خطاها بثبات وحكمة لأنها مدركة أنها بصدد إعداد رجال المستقبل كيف لا وقد أرضعتهم حليبا صافيا نقيا من الشوائب و الجهالة.

لا يوجد ما يقال في الأم خير مما قاله الشاعر الجزائري "حمري بحري":

يورق الجرح على جبهة أمي

مطر يرقص في قلبي

شجر يغفو على جيد الجداول

أنظروا ما أروع الجرح

الذي يزهر في الدرب

فلماذا لا نحب الزهر والنهر!

لا نحب النهر والورد !

---

(1)علي فالح الصمادي: "صورة المرأة في روايات سحر خليفة"، دورب النشر و التوزيع، الطبعة العربية عمان، الأردن،2010م.

(2)عبد الرحمان الوافي: في سيكولوجية المرأة، دار هومة، الجزائر، ص 19.

لا نحب المرأة النهر ! (1)

إذن فالجرح مع الأم لا يصبح جرحا ولا معنى له مع حنانها المتدفق وعاطفتها إلى درجة أن الشاعر أحب هذا الجرح لارتباطه بالأم.

هذه هي الأم الجزائرية أم لم تتمتع بحقوقها في ظل الاستعمار. في الأمومة والإنسانية مقارنة بأمومة المستعمر المشرقة التي ترعى حقوقها وكرامتها، وكأن اللأمومة ليست واحدة عند البشر والإنسانية جمعاء وفي هذا المعنى نجد أحد الشعراء يقول:

تلك الأمومة عند قوم تعبد *** يا ليتها فينا ترى ما يسعد !

جعلوا لها عيدا أغر مقدسا *** يعلى به تذكارها ويمجد (2)

وهذا يدل على رفض الشاعر للوضعية التي عانتها المرأة في ظل المستعمر من إهانة لكرامتها وشرفها وإنسانيتها وأمومتها.

وصور معاناة الأم الجزائرية لا تتوقف عند إهانة أمومتها وعدم وجود الزوج إلى جانبها بل وصلت إلى معاناتها مع الظروف الاجتماعية القاسية وعلى رأسها الفقر الذي كانت لهذه الأم رحلة طويلة معه مضطرة إلى طهي الأعشاب أحيانا لسد رمق أولادها بل وصل بها الأمر إلى حد وضع القدر مليئا بالماء على موقد النار لإيهام أطفالها بأن الطعام يطهى إلى أن يستسلموا للنوم آملين في غد جديد يحمل معه رياح التغيير، ومن بين الشعراء الذين اهتموا بقضية معاناة المرأة الجزائرية من الفقر والحرمان محمد العيد آل خليفة، الذي كان شعره لا يخلو من الدعوة إلى التغيير والنهوض بواقع المرأة حيث يقول:

وأقرأ من أي الشقاوة أسطراً *** على صفحات الكون مرتسفات

فطر عيابيل أمضه الطوى *** عراة على لفح الأثير حفـــاة

(1) عبد الحميد هيمة: الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري، ص174.
(2) عجناك يمينة : المرأة في الشعر الإصلاحي الجديد، جامعة الجزائر، ص 25.

وسطر أيامي يسطرخن توجعا *** من البؤس لا يفتأن مكتئبات [1]

هذه هي الأم الجزائرية ومعاناتها مع الفقر من أجل صغارها، هذا الفقر الذي حاربته بكل الوسائل توسلت ، وعملت كخادمة، هذا الفقر الذي وضع شرفها وعرضها في مرات كثيرة على المحك، لكنها أبت وكانت لبؤة في الدفاع عن شرفها لأنها تعرف أن الشرف والعرض لا يساويه مال الدنيا أجمع وببساطة لأنها أم جزائرية حرة.

3.المرأة الحبيبة:

إن مظاهر الجمال المبثوثة في الكون هي التي استوحت الشاعر الجزائري فانفعل بها وراح يتغنى بجمالها، فعبر عن افتتانه بالطبيعة حية وصامتة كما افتتن بالجمال البشري فكان للمرأة نصيب في شعره، لأنه وجد فيها خير وسيلة تجسد إحساسها وتذوقه لها، يقول محمد مرتاض:

" ونحسب أن غرض الغزل يمثل– من الناحية الجمالية – صورة معربة عن الإحساس العربي بالجمال، وتفوقه في تحديد ملامحه وأي جمال أروع وأشد نظارة من الجمال البشري ؟ فالألواح والتماثيل بغض النظر عما تبرزه من تجاوزات أحيانا لا ترقى إلى النسق الذي نلاحظه في الجمال الإنساني".[2]

والشاعر أحب المرأة ولم يجد من وسيلة للتعبير عن حبه سوى الغزل وهو أكبر عون في رسم المرأة في لباسها، وفي أعضاء جسدها، وحركاتها، وتنقلها ومنهاج عيشتها مصور الحرقة والأسى والنعيم والسعادة عند الشاعر وعند المعشوقة.

ومن الشعراء الجزائريين الذين حاولوا رسم صورة كلية للمرأة الحبيبة الشاعر ابن الخلوف القسنطيني يقول:

---

(1) محي الدين قدور : إلى النواب لوم وكتاب ، جريدة المرصاي ، العدد 18، 1932م، ص 03.
(2) مذكرة تخرج : صورة المرأة في الشعر الجزائري القديم ديوان المطبوعات، 1998م ، ص 48.

بديعة معنى الحسن ثم جمالها *** ولا بدر إن خففت إلا متمم

فيا ليل ما أبداه فاحم شعرها *** وللصبح ما أهدى سناء التبسم

وللغصن ما زرت عليه ثيابها *** وللزهر ما أخفاه عنا التلثم

أعانق منها الغصن والغصن قامة *** وألثم منها البدر والبدر مبسم (1)

يشبه الشاعر المعشوقة في هذه الأبيات بالبدر لجمالها الفاتن الأخاذ، إلا أنه يضفي على هذا البدر صفة التمام والكمال يؤكد أن هذه المرأة قد جمعت معالم الحسن وتجلياته وليس بها ما يعيبها أو يشوه صورتها ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى تفصيل جزئيات هذه الصورة التي رسمها للمعشوقة فشعرها أسود فاحم السواد.

وحديث الشعراء الجزائريين عن لواعج الشوق و تباريح الهوى ما هو إلا نتيجة لانفعالهم بمظاهر الجمال الحسي للمرأة وإدراكا منهم استحالة الفصل بين عالم المادة و عالم الروح. لاسيما أن هؤلاء الشعراء قد عاشوا في كنف الإسلام واستظلوا برايته، فكان للقيم والمثل الإسلامية أثرها على الشعراء، ومن ثم، اتجهوا إلى الحديث عن المرأة وفقا لذوق العصر ومتطلباته، فكانت صورهم بعيدة عن الإسراف والإبتدال، ثم إن المرأة لم تكن تتمتع بجو الانطلاق والتحرر الذي كان سائدا في العصر الجاهلي وقد صرف الإسلام أهله عن التكالب على المادة، وعن الاعتداد بها بوصفها غاية من الغايات. فبعد أن كان الحرص على الحياة وملذاتها طابعا جاهليا عاما، أخذ المسلمون يرون هذه المادة شيئا هينا إذا قيست بالقيم الروحية الخالدة. (2)

(1) مذكرة تخرج: صورة المرأة في الشعر الجزائري القديم نقلا عن القسنطيني ابن الخلوف، ديوان جني البيتين في مدح خير الفرقتين، ص 234-235.
(2) مذكرة تخرج: صورة المرأة في الشعر الجزائري القديم،دحمان ميلودي، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 18 جانفي 2009 ، ص 30 .

وعليه لم تعد الأنوثة وحدها هي التي تشد الشاعر إلى المرأة، وهو لا يتغنى بالمرأة بدافع النزوة أو الرغبة فحسب، و إنما هناك مزايا نفسية و خلقية ينشدها في المرأة، و قد كان الحديث عن المرأة حديثا عن تجارب عاطفية.

وعند أغلب الشعراء الجزائريين الحبيبة كانت معادلا موضوعيا للوطن حيث يصبح هذا الأخير كالحبيبة التي تعتني بحبيبها و تحاول أن تجعله في سعادة دائمة، ونجد هذا الرمز بكثرة في ديوان:" ما ذنب المسمار يا خشبة" [1] وهذا مقطع من قصيدة " حبيبة تتعرى" المأخوذ من ذلك الديوان الذي يقول فيه صاحبه:

من مخاض الرفض

من عشق الحجارة

يكبر النهر

يضيق الخصر

غصنا و إشارة

فأراها تتعرى

فالقارئ لهذه القصيدة يعتقد للوهلة الأولى أن الشاعر يتحدث عن حبيبته خاصة عندما يمر بلفظة المخاض والخصر لكنه في الحقيقة يقصد الوطن وهذا هو الطابع الغالب على قصائد الشعراء الجزائريين، وبهذا تبقى المرأة دائما هي الأم والزوجة والأخت والبنت وتنظر إليها نظرة ملئها الاحترام والتقدير لأنها شقيقة الرجل وقالب النوع الإنساني ويجب معالجة سلوك صنف معين من الرجال هو ذلك الذي لا يكف عن الإعلان على أنه لا يفهم المرأة منتهيا به الاعتقاد إلى أنها موضوع جنس في يد الرجل وخادم بيت وآلة

(1) حمري بحري:ما ذنب المسمار ياخشبة، الجزائر، 1982م ، ص 13-15.

لإنتاج الأبناء، لذلك يجب على الرجل أن يتحرر من ميوله و نزعته الذكورية وأن يعلم أن عدم وجود المرأة يعني عدم وجوده وأنه هو و المرأة من نفس واحدة.

المرأة كائن سحري عجيب يشارك الرجل أفكاره وعواطفه و أحاسيسه و قيمه، ثم لا يلبث أن يشاركه الحياة نفسها من داخله طورا ومن خارجه طورا آخر، ومما هو غير قابل للجدل تماما أنه في مرحلة التكون الأولى هو رهن تماما الوصاية الأنثوية عليه وهذه الأنثى التي تتنازل طوعا عن هذه الوصاية الأولى لتهبه استقلاله التام لاحقا لا تلبث خلف مطلب المناصفة في الدور والإنصاف لحقها منه.

المرأة نصف المجتمع السوي بكل أبعاد هذه المناصفة واستحقاقاتها ما لها و ما عليها ومن ضمن ذلك قطعا مناصفة الشعور والمشاعر لأنها جزء من عقد الحياة. معها ولابد من الإقرار بأن عددا من المجتمعات غير السوية ربما لازالت غير سوية في بنائها و نشاطها ووجهتها.[1]

إذن فالمرأة هذا الكائن اللغز في أحيان كثيرة الحامل بين جنبه كل الجدليات المحتملة وغير المحتملة، و الذي يمكن أن يكون العدم و يمكن أن يكون الحياة و الوجود، القادر على أن يهب الحنان كقدرته على فرض القسوة، الذي يرغب بالقرب والدفء و يرهب بالجفوة و القسوة، المستطيع أن يكون كل هذه الثنائيات معا طوع رغبته و قدرته أيضا لابد و أن له موقعا مميزا في علاقته بالفنون جميعا كما بالثقافات و بالتأكيد بالخيال و فنونه و باب الخيال العريض هو الشعر.

فكيف هي هذه المرأة اللغز في الشعر الجزائري عامة و ما تأثيرها و ما صورتها في الشعر الجزائري؟ هل هي امرأة من هذا الجنس أم إنها تعدت كل الحدود و سافرت عبر كل العوالم !

(1) أيمن اللبدي: المرأة و الشعر العربي، دار ناشري، نشر إلكترونيا في يوليو 2003 م ، ص04.

1 –شعر عثمان لوصيف بين التجسيد و التجريد:

التجسيد: هو إلباس المعنوي قالبا ماديا – التعبير فنيا عن انفعالات النفس تعبيرا شخصيا.

التجريد: هو أن ينتزع من أمر ذا صفة أمرا آخر مماثل له مثل إن صادفته صادفت أسدا.

رغم سيادة الفكرة القائلة بأن حواء هي مصدر كل شر في الفكر الديني الغربي، فإنه مع الأدب السريالي ظهرت صورة جديدة للمرأة، ففي أواسط القرن 18 ظهر وجه مختلف للمرأة يجسد حسن الطالع للرجل، و يصبو إلى أن يكون في حياته على حد قول غوته – مثابة حجر في البناء– [1] ، فأعيد الاعتبار للمرأة و هذا ما نجده في الشعر العربي المعاصر حيث كان "نزار قباني" شاعر المرأة بلا منازع إذ قام " بإعلاء مفهوم الحس و هذا ما لم تدركه الحداثة العربية التي دفعت الشعر إلى تخوم التجريد وانتصر كل ما هو إيديولوجي على كل ما هو حي بشكل حاسم" [2] و بالموازاة حاول الشعر الجزائري أن يخرج من القوقعة التي حوصر فيها لدواع أخلاقية أو إيديولوجية و هذا ما ظهر على شعراء جيل– الثمانينات و التسعينات– و هو شعر تغلب عليه النزعة الصوفية التي تضفي على القصائد ضبابية تستدعي التأويل، و قد كانت المرأة حاضرة في دواوين هؤلاء الشعراء الذين دفعوا بها –كدال– إلى أبعد درجات الإيحاء "فهي ليست كائنا إنسانيا محدودا بل عنصرا مركبا يفتح نحو آفاق مختلفة تشد الإنسان خارج الحدود الضيقة" [3]

و من هؤلاء الشعراء الشاعر "عثمان لوصيف" الذي تبنى ثنائية التجسيد و التجريد في شعره بصفة عامة و في ديوان "و لعينيك هذا الفيض" بصفة خاصة فتحدث عن المرأة هذا اللغز الرائع، فتحدث عن جسدها تارة، فحوله من تمثال أو صورة متحف، إلى كائن

---

(1) نقولا سعادة: قضايا أدبية، دار مارون عبود، ط1، 1984م، ص196

(2)علي بدر (المدى): نزار قباني صانع الشعر و غرام النساء و أشكال الحداثةhttp//www.alimhatm.com

(3) منصف عبد الحق: الكتابة و التجربة الصوفية: نموذج محي الدين بن عربي، ، منشورات عكاظ، ط1، المغرب، 1988 م، ص491.

متحرك تدب فيه الحياة، و تحدث عن صفاتها المعنوية تارة أخرى فلم نعد نعرف أهي كائن بشري أم أيقونة في معبد يصلى إليها رغبة في الظفر ببركاتها و هذه التقنية زادت النص الشعري اتساقا و جمالا و غموضا أيضا حيث أنا لا نجد صورة واحدة للمرأة و إنما هناك صور تتوالد الواحدة عن الأخرى حيث نجد الشاعر يتأرجح بين صورة الجسد المغري وصورة إله مجسّد في امرأة.

ومن أمثلة ذلك نجده يقول في الديوان:

جسدك

حبُ رمان

عصارة برقوق معتق

لبأ ينعقد

خمير إكسيري

و فتيت من سوسن و كرز (1)

في هذا المقطع نلاحظ أن الشاعر قام بعملية التجريد حيث أنه أخد "حب الرمان" وهو دلالة على الاتساق و الانسجام و الصورة الرائعة التي يشكلها عند تجمعه و ألصقها بجسد المرأة ليسهل عليه توصيل المعنى الحقيقي.

وهذه التقنية (التجسيد و التجريد) جعلت المرأة في ديوان عثمان لوصيف ذات دلالات مختلفة فحضر الجسد بجل أعضائه المغرية و حضرت المرأة بعنادها و كبريائها فلم يكن أمام الشاعر إلا الانصياع لهذه المخلوقة المتعددة العوالم بل وصل به الهيام والوجد إلى درجة السجود لها.

(1) عثمان لوصيف، ولعينيك هذا الفيض، طبع بمطبعة هومه ، 1999م ، ص12.

من جهة أخرى هذه التقنية جعلت الطبيعة تحضر في نص شعر "عثمان لوصيف" حيث وظف الطبيعة و ما ميّز هذا التوظيف هو المزج بين المرأة و الطبيعة وإسقاط الصفات الأنثوية على عناصر الطبيعة المختلفة فروحُ المرأة حالّة في كل عناصر الطبيعة، كما أن الذات الإلهية حالّة في الوجود و أن الشاعر فنيَ بكُليته في الجوهر الأنثوي، فأصبح لا يرى ذاته و لا يرى الواقع خارج هذا الجوهر فقد تلون بلون المرأة واتشح بوشاحها و حيثما تتوجه ببصرك فثمة وجه المرأة.

إن الشاعر في توظيفه لمظاهر الطبيعة (*) لا يقف موقفا سلبيا بل يتفاعل معها يبحث عن الجوهر القابع بداخلها، عن روحها المستترة هذه الروح التي تسري في الوجود و في عناصر الطبيعة فتضم الكائنات جميعها في نسيج واحد متلاحم و لكن النظرة المادية الروتينية جعلتنا لا ننتبه لها و لا ندرك حضورها، و لكن الشاعر بحسه المرهف يستطيع أن يتغلغل بشعوره في صور الطبيعة و أشكالها المختلفة فيولد ثنائيات جديدة مصدرها الطبيعة بمظاهرها المختلفة الحية و الجامدة(1).

إن التزاوج بين الجسد و الصفات الحسية المعنوية و بين المرأة و الطبيعة مكنت الشاعر من الحسية و الاعتبارات الشبقية إلى وسيلة أو معبر لبلوغ أرقى درجات العبادة و هذا من سمات الشعر الصوفي.

(*) لم تكن رموز الطبيعة في الشعر الصوفي بمعزل عن رمز الجوهر الأنثوي مما يهدي إلى أن الصوفية قد يسطوا شعرهم في المرأة وامتدادا بها في نسيج الأشياء بوصفها رمزا للفعل و الانفعال.

(1) مذكرة لنيل شهادة الماجستير: إعداد الطالبة كريمة حميطوش.تولد الدلالة في ديوان و " لعينيك هذا الفيض" لعثمان لوصيف،جامعة تيزي وزو، د.ت .

2 -المرأة و العوالم الصوفية:

قبل أن نتطرق إلى المرأة الصوفية في ديوان الشاعر " عثمان لوصيف" " و لعينيك هذا الفيض" و كيف تحدث عنها و ماذا تمثل بالنسبة له؟ يجب أن نتحدث عن هذا المخلوق المحيّر و الجميل في نفس الوقت وكيف يُنظر إليها في الثقافة الصوفية؟ و إلى ماذا ترمز؟ المرأة رمزا للإخلاص الإنساني و للحب و الجمال حاولوا رفعها إلى درجة التأليه ! من جهة أخرى هي تجل لجمال الخالق و بالتالي هي معبر لتحقيق الحب الإلهي. أما عند الشعراء فإن الشاعر لا يستطيع التغير و الوصول إلى درجة الحب الإلهي إلا عندما يندمج و يغرق في هذه المرأة فتكون هجرات الروح الإنسانية باتجاه النور الإلهية.

أما الشاعر عثمان لوصيف فإن حبه للمرأة الصوفية حب تراكم إلى أن بلغ الذروة فانفجر مشتعلا متوهجا و هذا الحب المتوهج هو حب طاهر نقي عفيف خال من كل الشوائب (المادية) و في نص الشاعر لوصيف تغدوا المرأة رمزا لمكون إلهي حيث يذوب الشاعر فيها و يهاجر إليها بكل أحاسيسه و هنا يتم تصعيد المظهر الفيزيائي الأنثوي إلى أعلى مستوياته الروحانية الصوفية، القصيدة مليئة و حافلة بالمفردات التي ترمز للمرأة مثل " جَسَدُك، وجنتيك، عينيك" لكن المرأة في هذا النص تتخلى عن صورتها المادية لتتحول إلى رمز روحي شفاف يحيلنا على العشق (الإلهي) الصوفي الذي يحير لب الشاعر و يعمق مأساته في إمكانية الوصال من عدمه بالمحبوب الذي يستعير له صفات الحب العذري.

هذه الرؤية المقدسة للحب تصعد تجربة الحب لتشمل الإنسان و الكون بمعنى آخر هناك تصعيد للحب الإنساني إلى مستوى الحب الإلهي (الفردوس المنشود) وسعي إلى طرح قيم روحية جديدة، تعتمد مبدأ المواءمة بين واقع الذات الإنسانية ورؤاها الروحية من أجل خلق عالم جديد منسجم و لذلك نجد الشاعر يبحث دائما عن التشاكل بين عناصر الوجود بين الجامع و الفارق، الحاضر و الغائب.

سعى الشاعر من خلال توظيفه للصوفية و مظاهرها إلى الأعماق، فالصوفية لا تكتفي بالتأمل الباطني لحقائق الوجود و إنما ترمي إلى الاندماج و التوحد معها من خلال التجربة الحقيقية التي يعيشها الشاعر و يلتهب بحريقها.

يكثر توظيف المرأة للدلالة على الحب الإلهي و لعل عنوان الديوان "ولعينيك هذا الفيض" يوحي بأن الخطاب موجه للمرأة التي يبثها الشاعر أحزانه و آلامه و المرء لا يبث أحزانه و آلامه إلا لمن يملك القدرة على تغييرها و تحويلها إلى أفراح و مسرات.

إن انخراط الشاعر في الكتابة الصوفية واستدعاء المرأة و حضورها في صياغة القصيدة الصوفية يدل على انخراط الشاعر في دين المحبة و الشوق للمحبوب و المحبة شراب لا يرتوي منه صاحبه مهما شرب منه. إن الرمز الصوفي يمارس في النص فعل الحجب و الكشف معا و هذه هي طبيعة الرمز الصوفي بشكل عام، إنه كالسحاب الذي يغطي الشمس لا ليخفيها و إنما ليقلل من حدتها حتى يمكن التحديق بها دون أن نخشى الاحتراق.

فاللغة الصوفية لغة تجاوزيه منفتحة عل هاجسها الإلهي و الإله يحضر في كل شيء في المرأة في مظاهر الطبيعة في عناصر الكون الفسيح. (1)

"فالله في عرف الصوفية أراد أن يرى نفسه فخلق آدم على صورته فكان كالمرآة له و ما الإنسان و ما العلم إلا تجل من تجليات الله، ما الحب إلا حب الله فهو المعشوق الذي لا تدرك حقيقته إلا بحركة عشق اتجاهه تتخذ من المناجاة وسيلة و من الخيال وسيلة ومن الشعر ترجمانا".(2) كما يعتقد دعاة الحلول والاتحاد.

---

(1) هيمة عبد الحميد: الرمز الصوفي في الشعر الجزائري المعاصر و آليات التأويل، د .ت، د . ط
(2) محمد الكحلاوي " الرمز و الرمزية في النص الصوفي، ابن عربي نموذجا"، مجلة الحياة الثقافية، تونس، عدد75، ماي1996 م، ص28-29.

والشاعر لا يسعى من وراء هذا الحب لتحقيق الاتصال الحسي فهو حب روحي يتوجه من أسفل إلى أعلى (من الناسو ت إلى اللاهوت) و الشاعر إذا أراد الوصول إلى درجة المحبة الإلهية و الانتشاء بها لابد من قوة الانفعال وامتلاء قلبه بالحب الإلهي ويجب أن يتوحد الشاعر مع عمق المرأة فيحيا فيها بل يولد من خلالها ولادة جديدة و هذه الولادة تحقق السمو إلى الآفاق.

والشاعر عثمان لوصيف استحضر الرمز الصوفي للدلالة على عمق التجربة الصوفية لديه إلى حد أن الشاعر يتوضأ بالعشق، و يصلي لعيني تلك المرأة أي إنه يسمو عن الواقع المادي و لذلك يغدو عشقه عشقا روحيا طاهرا لا تشوبه الأغراض المادية إنه حب جوهري أصيل حب خالص يسعى إلى الارتقاء بالعاطفة والوجدان ويغدو جمال المرأة رمزا للجمال المبثوث في كل عناصر الوجود فتغيب المرأة الأنثى وتتولد المرأة الرمز التي تتقمص الوجود و تغير الكون.

إن الجمال الإلهي يغمر كل الوجود و الشاعر يحس به في كل مظاهر الكون في الفجر و بين النجوم و في كل زئبقة تتفتح و هذا تأكيد لوحدة الوجود التي قال عنها ابن عربي: " المرأة تجلي لهذا الوجود المطلق بل هي أفضل مظاهر تجليه" [(1)] لذلك يعشق الرجل المرأة و يعشق كل شيء جميل في الوجود.

وبهذا يمكن القول "إن المرأة بوصفها المحبوبة رمز الأنوثة الخالقة للرحم الكونية وهي بوصفها كذالك علة الوجود ومكان الوجود والكاشف لكي يحضر فيها يجب أن يغيب عن نفسه عن صفاته يجب أن يزيل صفاته لكي يثبت ذات حبيبته و يتوحد بهذه الذات" [(2)] وهنا ينفتح رمز المرأة على دلالات شتى المرأة رمز للحب الإلهي و الجمال الإلهي المرأة ترمز لكل ما هو جوهري و أصيل في الحياة، السمو على الواقع.

---

(1) وتعني ظهور الحق في كل صورة، فهو تعالى المتجلي في كل وجه و المطلوب في كل آية و المنظور إليه بكل عين..." ،سعاد الحكيم: المعجم الصوفي، ص1151 .
(2) أدونيس: الصوفية و السوريالية، دار الساقي، الطبعة الثالثة، د.ت.

وهكذا يصبح للمرأة بعد ظاهري محسوس (المرأة الجسد) وبعد باطني خفي يتوصل إليه بالقراءات التأويلية.

ويتخذ الرمز منحى تصاعديا من البعد المادي إلى البعد الروحي المفتوح على شتى الاحتمالات و بذلك يخلق الشاعر المرأة خلقا جديدا عن طريق إفراغ المرأة من دلالتها المادية ثم شحنها بالدلالات الروحية الجديدة فتصبح المرأة معادلا للحب والجمال والمعان الأخرى. ومن أمثلة ورود المرأة الصوفية في شعر عثمان لوصيف ديوان " و لعينيك هذا الفيض" قوله في أحد المقاطع:

قالوا عنك مخبولة

واتهموك بالغواية

آه... يا قديسة الشعراء !

آه... يا امرأة من نوافح عبقر !

أخلع نعلي وأهبط واديك

مغتسلا بالصبابات

تبرزين لي في كل واد

مع سقسقة الفجر

و عند همهمة الغسق

أراك مكللة بالأنداء

موشومة بالسمفونيات

رافلة في فستانك الكهنوتي.

سادرة. [1]

أسندت صفة الخبل والغواية إلى المرأة والوشاية من الأمور الملازمة لقصص الحب لكن الشاعر يتجاوز هذه الإشاعات و ينفي هذه الصفات. و تبدأ صورة المرأة المعبودة حيث يخلع الشاعر نعليه للوصول إليها، و خلع النعلين هو الأمر الذي تلقاه موسى من ربه لما حل بالواد المقدس طوى، و هو ما يقوم به المسلم استعدادا للدخول إلى المسجد الذي هو محل القداسة و الطهارة العظمى، و تأتي مرحلة تحقيق الشاعر لما يصب و إليه وينزل في الوادي و يكون وجها لوجه مع هذه المرأة و في لحظة اللقاء يتسع هذا الوادي وتصبح هذه المرأة تبرز في كل واد و هذا البروز لا يكون إلا وقت سقسقة الفجر أي بزوغ الفجر و تلاشي آخر ظلمات الليل و في هذا الوقت تتولد الأنوار و ينحسر الدجى. فالمرأة إذن تبرز في اللحظة الحساسة التي يتحول فيها الزمن و هي من اللحظات الدالة على قدرة الخالق. [2]

نجده يقول في مقطع آخر:

أتذكرك

في كل صلاة

فأنحني ... في خشوع

أغمض عيني من رهبة

أسبّح بحمدك

و أتضرّع

إلى عينيك اللامتناهيتين

---

(1) عثمان لوصيف: ديوان و لعينيك هذا الفيض، ص41

(2) ينظر: مذكرة نيل شهادة الماجستير: تولد الدلالة في ديوان و لعينيك هذا الفيض" لعثمان لوصيف ، إعداد الطالبة: كريمة حميطوش.

يا صورة الله

في بهو المرأة

ويا راهبة المعاني

من كل نار

وعلى كل قافية ضامرة

يتوافد الحجيج

أفواجا (1)

هذه المقاطع تجل للمرأة الخالقة. يستهل الشاعر هده المقاطع بصورة مصلٍّ تراود امرأة مخيلته وهو يؤدي فريضة الصلاة لكن هذه الصورة تزاح إذ تصير المرأة هي الطرف الذي توجه إليه العبادة و ذلك من خلال الكلمات الدالة على الصلاة و التضرع، ثم ينتقل الشاعر للحديث عن الحج فوظف أفعال الحركة فبدل المصلي الوحيد نجد الحجاج في توافدهم و في دخولهم الإحرام إلى غيرها من الشعائر التي لا تتم إلا في الجماعة ثم ينتقل إلى المناسك فيقول:

ملبين

مهللين

ومكبرين

طائفين.............عاكفين

ركعا...............سجدا (2)

(1) عثمان لوصيف، و لعينيك هذا الفيض، ص34.
(2) المصدر نفسه، ص36.

والشاعر أشرك غيره في مسار العبادة ففريضة الحج تقتضي وجود هذه الجماعات التي تسعى كلها لنيل رضا المعبود و نيل غفرانه و لقد كنا نشهد الصراع من أجل الوصول إلى المرأة و الظفر بها لكن هنا لا يوجد الصراع لأن هذه المرأة هي تجل للخالق منزلةً منزلة الإله لذلك يسعى الكل إلى الوصول إليها في توافق ووئام.

ونجده يقول في مقطع أخر:

آه............عيناك نضاحتان

بالرؤى............والألوان

فيروزتان تنتديان

ونجمتان تتغامزان

فينجذب الشعراء

مصعوقين

مثل الدراويش

إلى مدارها الآسر (1)

في هذا المقطع يحتار المتلقي في تحديد دلالة العينين المذكورتين فقرائن الغمز والفيروز و الألوان توحي إلى العيون الجارحة و لكن الكلمة "نضاحتان" بمفردها كفيلة بقلب الموقف الغزلي إلى التأمل في روائع الخالق المذكورة في القرآن(*) فهل نرجح عيون المحبوبة أم عيون الجنة.

---

(1)عثمان لوصيف: و لعينيك هذا الفيض ، ص29.
(*) سورة الرحمان الآية 66.

هذه هي المرأة من الناحية الصوفية عند الشاعر عثمان لوصيف إنها ليست امرأة عادية، امرأة تصله بمن رضاه مكسب و عفوه مطلب فلا تطلب حبا دونه.

3 المرأة المدينة:

المرأة و كما سبق الذكر هي ملهمة الشعراء، الكائن السحري العجيب الذي يشارك الرجل أفكاره و عواطفه و أحاسيسه بالنسبة للشعر الجزائري أو العربي والمرأة تحولت لدى الشاعر إلى صورة و ملمح آخر من ملامح الشعر، يبدي فيها حدوا خاصا واحتفاء أنيق بالأنوثة في أسلوب خال من الإبتدال و التغزل المصطنع لذات المرأة الأم والحبيبة والصديقة و الرفيقة في درب الحياة، و أخذت المرأة في قصائد " عثمان لوصيف" أشكالا متعددة أهمها (المرأة المدينة، المرأة و عالم ما وراء الطبيعة، المرأة و التصوف....الخ) بالحديث عن المرأة المدينة و العلاقة الوطيدة بينهما لأن المدينة في الشعر الجزائري لها مكانة خاصة مثلما هي في الشعر العربي كله، حيث نجد كثير من الشعراء الجزائريين تغنوا بها في أشعارهم سواء كانت المدن التي يسكنون بها أو التي زاروها أو ولدوا فيها و قد كثرت النصوص الشعرية المتعلقة بها و تفاوت توظيفها من شاعر لآخر و من مرحلة زمنية إلى أخرى و تميز هذا التوظيف بذكر أسماء الأمكنة. (1)

وتعددت مشاعره نحوها بين القبول والرفض وبين الهروب منها و اللجوء إليها فكان بذلك شموليا في نظرته لها بغض النظر عن الأهداف و الدلالات و القيم التي تحملها كل مدينة.

وهي الأمكنة الجزائرية التي مارست سلطتها على الشعراء، والتي تحولت إلى رمز فني و شملت مساحة كبيرة في أشعارهم، كما هو الشأن بالنسبة لــ" الأوراس" فهي " رمز الجزائر الشامخة وانطلاقة ثورتها الرائعة" على سبيل المثال.

---

(1) مذكرة ليسانس: ابتسام بوعنان ، حياة عثماني: المدينة في شعر عثمان لوصيف، ديوان غرداية – نموذجا- المركز الجامعي ميلة، سنة 2012- 2013م ، ص46.

لقد شكلت الأوراس– المكان / الرمز – فألهمت الشعراء و ستبقى تلهمهم إلى أبد الآبدين، و الشاعر صلاح خرفي أحبها مثلما أحب قيس ليلى، فكانت الجزائر محور القول الشعري عنده و الحب الذي لن يتخلى عنه، فهي حبيبة العم الذي لن يرضى عنها بديلا و لا ينحصر ذلك عليه فقط بل على العديد من الشعراء الجزائريين. (1)

لذلك نجد قصائد الشاعر "عثمان لوصيف" القاموس الجمالي الجزائري و قلما التصق الشاعر بمكان يمر عليه، و قد كان للمدينة حضور قوي في أشعاره التي من بينها "ولعينيك هذا الفيض" في قوله:

أحاول دوما أن أطير إليك

أن أطرق أبوابك المختومة

لكي مزاميري المترمّلة

تشهق كلها شهقة واحدة

واهوي أنا مصعوقا

على حرم عتباتك ......(2)

إن حب عثمان لوصيف لوطنه لا يقل عن حبه العميق للشعر شأن و قيمة، و يظهر ذلك من خلال شعره الذي يحاول أن يبين لنا مدى اشتياقه لمدينتة، و حقيقة شعوره بالطيران إليها و طرق أبوابها المغلقة و فتحها. نلاحظ أن المدينة عند الشاعر تحتل مكانة محورية و قد توزعت بين الشرق و الغرب و الشمال و الجنوب و إذا أردنا التحديد أكثر فالمدن الجزائرية عند عثمان لوصيف تنقسم من حيث الجغرافيا إلى أماكن ساحلية

---

(1)مذكرة ليسانس: ابتسام بوعنان ، حياة عثماني: المدينة في شعر عثمان لوصيف ،المرجع السابق، ص47.
(2) عثمان لوصيف: ديوان " ولعينيك هذا الفيض"، ص31.

وأماكن داخلية و أماكن صحراوية أيضا و هي مدن زارها الشاعر و كتب عنها نصوصا شعرية ووصفها بصفات تتحلى بها المرأة و الطبيعة فيقول:

كنارية تتنفض قبل أن تطير

ومن أقصى الوديان

يرن عطر أنوثة

أضاع الشعراء مفتاحها [1]

يتضح هنا أن وجود الشاعر كان مقرونا بوجود الآخر حيث يصير المكان يتوافر على الذاكرة فتحيل إلى تلك العلاقة السببية وتتماهى صورة المرأة مع المكان ويلتصق به.

فالشاعر يصبوا إلى التغيير ولا يجد هذا التغيير إلا عندما يغرق في جسد و سحر المرأة عندها فقط يستطيع التغيير ووصف المكان ببراعة.

فنجده مثلا يصف الجلفة بـــ: رشة خضراء، عروس، حسم طفولي، عذراء، نجمة، لؤلؤة، فتنة بنت الندى، معبودتي، فيروزة المساء يقول:

عشقي ونزواتي

نسحب في خلدي ألف حيلة وحيلة

لأستفز هذه الإلهة الصموة المخيفة

علها تشفي غليلي

بيد أنها بقيت

طوال المساء المطير

(1) المصدر نفسه، ص10.

تحدق في بعينين شبقتين

ولم تنبس ببنت شفة ! (1)

يتضح من خلال هذه الأبيات أن المدينة هي المعادل الموضوعي للمرأة عند الشاعر عثمان لوصيف, و هي ظاهرية رمزية يلتف حولها الشعراء الجزائريين, و يمكن أن نكشف عن المعاني اللامرئية لوطنيته العالية فجعل منها أنثى, وراح يغرق و يوغل في تصوير العناصر المحسوسة للأنثى, ليلغي الحدود المكانية و يحول المدينة المادية إلى جسد أنثوي خصب [2], و بذلك تحولت على يد الشاعر (المدينة) إلى امرأة أحبها, فربط بين حنينه للمدينة الرمز, المدينة الحلم بحنينه للمرأة إنما هي عودة إلى الذات و عودة لبداية حياة جديدة.

جاء دال "المرأة" في ديوان "عثمان لوصيف" مملوءا بمعاني مختلفة, الجسد بجل أعضائه المغرية, و حضرت المرأة بعنادها و كبريائها فلم يكن أمام الشاعر إلا الإنصياع لهذه المخلوقة المتعددة المعالم, بل وصل به الهيام و الوجد إلى درجة السجود لها. و هذا يعتبر المزج بين المرأة و المدينة في شعره حيث يمد تجاربه الفنية بنفس عاطفي خصيب، يولد تلك الرؤية الحية، حيث تتحول القصيدة إلى ومضة حلم، يتميز فيه الحب بالمدينة، و تمتزج فيه صوره الفتاة بالمدينة فلا يعود باستطاعة أحد أن يفرق بين عاطفة الحب نحو الفتاة أو الأم وبين عاطفة الحب نحو الأرض و الوطن [3]، يقول الشاعر في إحدى قصائده:

عيناك ...

سماوات قزحية

(1) عثمان لوصيف: ديوان " ولعينيك هذا الفيض"، ص66.
(2) محمد عبد الهادي: تجليات رمز المرأة في شعر " محمود درويش" ، قسم الأدب العربي – كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية، د .ط ، د .ت، ص03.
(3)محمد عبد الهادي: تجليات رمز المرأة في شعر " محمود درويش" ، ص 03.

فيهما تعترش الأغاني

وتتفتق الغوايات

يداك...

حنان الطبيعة في أوج صبوتها

خصلاتك الطائشة

صورة حية لأيامي الحيرى

لخطواتي الضالة

ونهداك الطافرات

كوكبان من شمع معجون

وفكرتان تستهويان العشاق [1]

اعتمد الشاعر على تقنية الوصف، و قد ركز على العينين و النهدين، و خصلات الشعر، و هذه الأعضاء هي مراكز الإثارة في الجسد الأنثوي [2]، فالمرأة مليئة بالأسرار والغموض والأساطير تماما مثل المدينة، لذلك نرى الشاعر وصف أجزاء الجسد وفي نفس الوقت استعان بعناصر الطبيعة و صورة المرأة تقترن بالمكان، فعالم المرأة لا يكاد يخرج من قصائده فأوجد الشاعر بينه و بين هذه المدينة علاقة غرامية.

و في قوله:

جسدك ...

(1)عثمان لوصيف: ديوان " ولعينيك هذا الفيض"، ص 20 -21.
(2) مذكرة لنيل شهادة الماجستير، إعداد الطالبة كريمة حميطوش: تولد الدلالة في ديوان " و لعينيك هذا الفيض " عثمان لوصيف"، ص 59.

ماخابية الفردوس

ما أترجّة المعنى إذ تنفلق

ما عناقيد النور المتقطر

وما سقسقة الشفق ! [1]

لقد استخدم عثمان لوصيف رمز المرأة كأداة فنية لإثراء عمله الأدبي، حيث آثر على حسه و وجدانه، و هذا ما يثبت أن هناك علاقة حميمية بين المرأة و المدينة، فراح يصف المدينة على أنها امرأة ذات جسد يخفي وراءه الكثير من الحسن و الجمال، و كأنها الجرة الكبيرة من الفردوس.

لقد أبدع الشاعر في ربط المكان بالمرأة بتنوعها المختلف عند الرجل، و خاصة الحبيبة.

4 المرأة و عالم ما وراء الطبيعة:

إن المرأة التي شردت الشاعر وأتعبته، و التي أكبرها واستعظمها بل عبدها، إن هي عالم يفيض بالسحر والغرابة ويجاوز المألوف، فأراد الشاعر عثمان لوصيف أن يظهر الأفعال و الصفات التي تلتصق بالمرأة أي أنه أوغل في وصفها على نحو تماهت فيه المرأة مع الطبيعة حتى أصبح من الصعب التمييز بين المرأة الواقعية والخفية، فالمرأة بالنسبة للشاعر هي ذلك المخلوق الجميل العجيب الذي ظل وسيظل على مدار التاريخ الإنساني مجالا للقيل و القال و مجالا لتأمل الأدباء و الشعراء والكتاب عبر العصور، لقد

(1)عثمان لوصيف: ديوان " ولعينيك هذا الفيض"، ص13.

كانت المرأة مصدر للإلهام على مر السنين فمنهم من عشق التراب الذي تمشي عليه، واعتبرها الكائن الخارق المليء بالألغاز والخيال. [1]

ونراه في قصيدة من ديوان" و لعينيك هذا الفيض" يقول:

أيتها الجنية الماردة

أيتها القوة الخارقة

خذيني طي هسيسك

طي بخوراتك

فانا صوفيك الأرمل...

بنبضاتي كتبت طواسين عينيك [2]

نجد الشاعر يصفها بطريقة عجيبة بصورة خيالية غير مكتملة وأعطاها صفة العالم الآخر عالم السحر والقوى الخارقة، يتضح لنا مع تعلق الشاعر بالمرأة وعلاقته المتداخلة بها لدرجة تخيل الدخول في عالم الإحساس الفائق و التأمل في أمور ما ورائية، فجعلها مَعبَرا نحو السمو الروحي.

ويقول الشاعر في قصيدة أخرى:

ما من أحد

يطال نظراتك الزائغة

أو يجرؤ أن يلامس

(1) مصطفى النشار: مكانة المرأة في فلسفة القراءة في محاورتي "الجمهورية" و " القوانين" كلية الآداب جامعة القاهرة، دار قباء، القاهرة د.ط، د.ت.

(2)عثمان لوصيف: ديوان " ولعينيك هذا الفيض"، ص 53- 54.

طيفك الشغوب

أسند أغاني للبرق

أسمع الأحشاء تتفزرُ

أسمع الأرحام تتقطع

أسمع صلصلة الصلصال

نثيث قزحي

يدغدغ جراحاتي المتفتقة

حيث تتفلق

الجوزات الخضراء

وفصوص الفيروزات البنفسجية (1)

اعترف الشاعر في الأسطر الشعرية الأولى باستحالة إدراك جرأة ملامسة طيف تلك المرأة و يستطيع مقاومة تلك النظرات فأسند إليها صفة الشغب (الطيف) وهذه بمثابة قدرات خاصة لا تتوفر لدى الإنسان العادي ، كسماع الأرحام و الأحشاء في تقطعها، أما سماع صلصلة الصلصال فإنها صورة نسجها الشاعر على شاكلة الصور الواردة في القرآن الكريم بشأن ذكر أهوال القيامة، وهذا ما يضفي على القصيدة الرعب و الوجل وما إن يبلغ الرعب ذروته حتى ينزاح، فبعد المشقة يبزغ الفجر الروحاني، و هذا التحول من المعاناة إلى النشوة صاحبه تحول في نبرة الشاعر، ففي حالة التخوف اعتمد على

(1)عثمان لوصيف: ديوان " ولعينيك هذا الفيض"، ص27.

حاسة السمع، و" للسماع في حياة الصوفية أهمية بالغة" فنجد " لوصيف" في معظم قصائده ميالة إلى عالم التصوف حتى عند تصوره للعالم الغريب الماورائي. (1)

تبين لنا من النماذج السابقة ما يلي:

تتشابك حالات الحب والألم وغيرها فهي عبارة عن تأملات في المرأة تتناول وجوها من العلاقة بينها و بين الرجل، نلاحظ في شعر الشاعر " عثمان لوصيف" و قصائد ديوانه " و لعينيك هذا الفيض" حبين، حب إنساني وحب صوفي، و كلا الحبين وجهان لحب واحد لأن مصدر الحب ومبدأه هو الإنسان، هذا الكائن الذي يحمل رغباته و تحمله أهواؤه ولأن مآل العشق هو حب الإنسان لنفسه بتوسّطه حب غيره. (2)

لقد حاول الشاعر من خلال تجاربه الاتصال بالله، أو بالعوالم الأخرى التي لا يمكن الاتصال بها في الأحوال العادية.

وعثمان لوصيف حاول رسم تشكيل خاص لعالم ما وراء الطبيعة و عالم التصوف حيث اعتمد في شطره على عنصر المحبة لصورة المرأة تجسيدا و تجريدا و محبة الخالق و كل مخلوقاته.

في نزوع كوني تنسجم فيه الموجودات مع بعضها وتتناغم تناغما فيه من الاتساق ما يعمل على الإبداع و الخلق.

لم تكن المرأة في شعر عثمان لوصيف تحضر على نحو تمثل فيه صورة حسية مكرورة، وإنما كانت عامل إلهام و إبداع و خلق حتى و هي تحيل إلى موجودات مجسمة في الطبيعة، فلا تعدو في هذه الحال أن تكون دلالة على مطابقتها للموجودات في الطبيعة.

---

(1) مذكرة لنيل شهادة الماجستير، إعداد الطالبة: كريمة حميطوش: تولد الدلالة في ديوان و لعينيك هذا الفيض " عثمان لوصيف"، ص41.

(2) علي حرب: الحب و الفناء " تأملات في المرأة و العشق و الوجود،دار المناهل، لبنان ، بيروت ط1،سنة 1411هـ - 1990م، ص07-08 .

اتخذت المرأة في شعر عثمان لوصيف طابعا خاصا وغدت عنصرا ملهما للشاعر على نحو تركته يتماهى معها ويخلع عليها جملة من المواصفات.

-جاءت المرأة في ديوان عثمان لوصيف امرأة غير هذا الجنس فكانت امرأة غريبة عجيبة وفي هذه الغرابة وهذا العجب سحر.

-مزج عثمان لوصيف أثناء تصويره للمرأة بين أفكاره وأحاسيسه وجعلها جزءا من عالمه الشعري، ومنفذا للتعبير عن مشاعره ليكون نصه متميزا ولافتا بالنسبة للقارئ .

-المرأة عند عثمان لوصيف هي الصدر الحنون الذي يهرب إليه من قسوة الزمن ويبثه آلامه وأحزانه.

-اتخذت المرأة رموزا كثيرة في ديوانه " ولعينيك هذا الفيض " منها:

-المرأة الصوفية والتي أبدى فيها حبه الإلهي العميق وتوحد معها بوصفها حالة صوفية غامضة واتخذها معبراً للوصول إلى الحب الطاهر العفيف.

-المرأة المدينة تطابقت فيها المرأة مع المدينة لدرجة أنه تودد إليها وغازلها ورسم لها صور الأنثى.

-المرأة وعوالم ما وراء الطبيعة أعطاها الشاعر صفة خيالية غير مكتملة في عالم السحر والقوى الخارقة وجعلها رمزا للسمو الروحي.

-المرأة عند عثمان لوصيف هي ليس الجسد الذي ينظر إليه بشهوة بل هي روح أيضا حاملة للعواطف والأحاسيس تتألم.

-حضرت المرأة في شعره بعنادها وكبريائها .

-المرأة عموما عند الشاعر عثمان لوصيف هي ليست المرأة الحبيبة فقط ، بل هي الأم أيضا لأنه لم ينس الرحم الذي احتضنه والأصل الذي يعود إليه.

لقد سما الشاعر عثمان لوصيف بالمرأة إلى درجة المثالية وأعاد لها القليل من حقها ولو بالكلمة الطيبة فقط.

إن القارئ لديوان " عثمان لوصيف " يدرك مدى قيمة المرأة سواء كانت أما، حبيبة أو أختا ويدرك أنه مهما اختلفت الصفات تبقى المرأة رمزا للحب والعطاء والحنان.

أ – القرآن الكريم .

ب– المصادر والمراجع :

1.أدونيس: الصوفية و السوريالية، دار الساقي، ط3، د.ت.

2.امرئ القيس: الديوان، دار صادر، بيروت.

3.أيمن اللبدي : المرأة و الشعر العربي، دار ناشري، نشر إلكترونيا في يوليو 2003 م .

4.حمري بحري:ما ذنب المسمار ياخشبة، الجزائر، 1982م .

5.زهيه بوديا بوثلجة: نساء الجزائر، إنجاز: مجلة أنوثة، منشورات جمعية المرأة ساحة أول ماي الجزائر، د.ط، 2002 م.

6.عبد الحميد هيمة: الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري المعاصر الناشر: اتحاد الكتاب الجزائريين، مطبعة: دار هومة ، ط1، 2003 م.

7.عبد الرحمان الوافي: في سيكولوجية المرأة، دار هومة، الجزائر، د.ط، د.ت .

8.عثمان لوصيف، ولعينيك هذا الفيض، طبع بمطبعة هومه ، 1999م .

9.عجناك يمينة : المرأة في الشعر الإصلاحي الجديد، جامعة الجزائر، د.ت.

10. علي بدر (المدى): نزار قباني صانع الشعر وغرام النساء و أشكال الحداثةhttp//www.alimhatm.com.

11. علي حرب: الحب و الفناء " تأملات في المرأة و العشق و الوجود،دار المناهل، لبنان ، بيروت ط1،سنة 1411هـ – 1990م.

12. علي فالح الصمادي: "صورة المرأة في روايات سحر خليفة"، دورب النشر و التوزيع، الطبعة العربية عمان، الأردن،2010م.

13. محمد الكحلاوي: " الرمز و الرمزية في النص الصوفي، ابن عربي نموذجا"، مجلة الحياة الثقافية، تونس، عدد75، ماي1996 م.

14. محمد صالح الجابري: الأدب الجزائري المعاصر، الجائزة المغاربية للثقافة، دار الجبل للنشر والطباعة، ط1، – 1426هـ 2005م.

15. محمد عبد الهادي: تجليات رمز المرأة في شعر " محمود درويش" ، قسم الأدب العربي – كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية، د .ط ، د .ت.

16. محي الدين قدور : إلى النواب لوم وكتاب ، جريدة المرصاي ، العدد 18 د.ط ، د .ت، 1932م.

17. سهام عبد الوهاب الفريح: المرأة العربية و الإبداع الشعري ، قسم اللغة العربية، جامعة الكويت، ط 1، دار جرير للنسر والتوزيع، عمان – شارع الملك حسين مقابل مجمع الفحيص التجاري، 1431 هـ ، 2010 م.

18. مصطفى النشار: مكانة المرأة في فلسفة القراءة في محاورتي "الجمهورية" و" القوانين" كلية الآداب جامعة القاهرة، دار قباء، القاهرة د.ط، د.ت.

19. من محاضرات الأدب الجزائري، أغراض الشعر الجزائري الحديث.

20. منصف عبد الحق: الكتابة و التجربة الصوفية: نموذج محي الدين بن عربي، منشورات عكاظ، ط1، المغرب، 1988 م.

21. ناصر معماش: النص الشعري النثري العربي في الجزائر، دراسة في بنية الخطاب، دار النشر: دحلب، عاصمة الثقافة العربية، الجزائر، ط1،2007 م.

22. نقولا سعادة: قضايا أدبية، دار مارون عبود، ط1، 1984م.

ج- الرسائل والمذكرات الجامعية :

1. مذكرة التخرج: صورة المرأة في الشعر الجاهلي، المعلقات نموذج، إعداد : درموشي نعيمة، قيقاح إلهام، إشراف الأستاذ: زلاقي محمد، سنة 2010-2011م.

2. مذكرة تخرج: صورة المرأة في الشعر الجزائري القديم نقلا عن القسنطيني ابن الخلوف، ديوان جني البيتين في مدح خير الفرقتين ، دحمان ميلودي، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 18 جانفي 2009م.

3.مذكرة لنيل شهادة الماجستير: إعداد الطالبة، كريمة حميطوش، تولد الدلالة في ديوان و " لعينيك هذا الفيض" لعثمان لوصيف،جامعة تيزي وزو، د.ت .

4.مذكرة ليسانس: ابتسام بوعنان ، حياة عثماني: المدينة في شعر عثمان لوصيف ديوان غرداية – نموذجا- المركز الجامعي ميلة، سنة 2012- 2013م.

الفهـــــــــــرس

الصفحة

- مـــــقدمة .....أ
- المدخل 02

الفصل الأول تجليات المرأة في الشعر بصفة عامة

1 -تجليات المرأة في الشعر بصفة عامة..... 07
2 -تجليات صورة المرأة في الشعر الجزائري 11
3 -المرأة الحبيبة..... 21

الفصل الثاني صورة المرأة في ديوان " ولعينيك هذا الفيض"

1 -شعر عثمان لوصيف بين التجسيد و التجريد 27
2 -المرأة و العوالم الصوفية..... 30
3 -المرأة المدينة 37
4 -المرأة و عالم ما وراء الطبيعة 42
خـــــــاتمة 47
قائمة المصادر والمراجع.